

## الرؤية والتشكيل في نثر البشير الإبراهيمي

محمد وهاب \*

كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر



### ملخص

جاءت هذه الدراسة في محاولة نقدية للوقوف على تلكم الرؤية التي استدعت ذلك المستوى الرفيع من التشكيلات النثرية عند الإبراهيمي، فكانت البداية بسر تكوين شخصيته الفذة، ثم رصد مكونات رؤيته، للولوج إلى عالم التشكيل الفني المستدعى طوعا أو كرها من لدن ذلك الحس الذي هو نواة وفكرة الإبداع الفني. فكان التشكيل الموضوعاتي من الإصلاح الديني الاجتماعي إلى الإصلاح السياسي الثقافى. ثم التشكيل الأسلوبى ليكون الاقتباس من القرآن، و السجع، والتخيل والتصوير. إن ذلك الحس أو الرؤية في الحقيقة هو نظرة إلى العالم، سواء كانت تتبنا بمصير الإنسان، أو تقييما لصراع قائم بين ثنائيتي الوجود (الخير / الشر). إنها تعبير من الفنان عن جانب من فلسفته للحياة تكبر بكبر نهى الأدباء في حلول لا نهائي مع وعيهم وهي تتسم بالشمولية والإغراق.

**الكلمات المفتاحية:** الرؤية، الرؤية النواة، التشكيل، الوعي، الاستدعاء،

الإصلاح

تقديم:

لم يكن الذين كفروا بما جاء به الشيخ البشير الإبراهيمي بأقل عدد من الذين آمنوا بفكره ونهجه الإصلاحية، الذي ما كان ليقوم لولا وعيه بحال أمته القائم على وجوب تحرير العقول والأرواح قبل الأبدان والأوطان، انطلاقاً من الدعوة إلى الالتزام بكتاب الله وسنة نبيه والاقتران بسير العلماء الصالحين والتمسك باللسان العربي والعمل على وحدة الأمة ونشر العلم وبث الأخلاق الفاضلة. وبناء على هذا التنوع والتعدد في المبادئ والمرتكزات التي بنى بها الإبراهيمي نهج إصلاحه. فرضنا ما جاز لنا أن نفرضه من ثنائيات رؤيوية كانت تعكس وعياً كونياً للعالم. هي ليست حكراً على صاحبها المبدع. فهي تتطلق من الأساس الثنائي: (الإسلام والعروبة)، إلى الرؤية النواة (الرؤية الإصلاحية) وبذلك يكون التجديد في كل مسارات الإصلاح، ف (الوحدة والحرية) كنتيجة وهدف. ومنه نتساءل: لماذا كانت كل هذه التفرعات في الرؤية عند الإبراهيمي وما طبيعتها؟ وهل تحكم هذا الحس الإصلاحي في هذه التشكيلات؟ وما تمظهرات هذا التحكم موضوعاً وأسلوباً؟

إننا نهدف من وراء هذا العمل إلى قراءة بنية الخطاب النثري الإصلاحي عند الإبراهيمي، بوصفه نموذجاً خصباً يمثل رؤية كوكبية من العلماء المصلحين خاصة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهما وتفسيراً. والتوسل بالمنهج البنيوي التكويني الذي يفرض وجوده بمقولاته ومفاهيمه .

وعليه جاء بحثنا في ثلاثة محاور: الأول يبحث في سيرة الإبراهيمي وي طرح مفاهيم الرؤية والتشكيل قصد بيان العلاقة التفاعلية بين الخلفيات المعرفية التي تلخص فكره ورؤيته للعالم، والتمهيد لهذه الرؤية وتفرعاتها في استدعاء شكل أدبي نثري هو الآخر فيه من التنوع والجمال الشيء

الكثير. أما المحور الثاني فيبحث في مكونات الرؤية المألوفة لوعي العقائدي والإنساني والحضاري، والتي هي متعددة المشارب بتعدد مكوناتها إلا أنها في الأخير تنتهي إلى الرؤية النواة. أما المحور الثالث فقد انصب على دراسة مظهرات البنية الأسلوبية والموضوعاتية، بوصفها نتاجاً لثنائيات الرؤية المتفرعة عن الرؤية النواة (الإصلاحية) والتي فيها ما هو سبب لوعي قائم (إسلام وعروبة) وفيها ما هو نتاج عنها لوعي ممكن (وحدة وحرية).

## المحور الأول: البشير الإبراهيمي الرؤية والتشكيل

### 1- البشير الإبراهيمي:

ولد الإبراهيمي يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق للربيع عشر من شهر يونيو سنة 1889م، بقرية أولاد براهيم جنوب مدينة سطيف، برج بوعرييج حالياً في بيت أسس على التقوى من بيوتات العلم والدين (الإبراهيمي، أ. 1997: 09/1). ويرتفع نسبه إلى "إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى... لم تكن عائلته على سعة من الثراء المادي ولكنها كانت على قدر كبير من الشهرة بالعلم والدين" (مهداوي، م. 1988: 33). حفظ القرآن على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي وبعض متون اللغة والنحو والفقہ في سن مبكرة كألفية ابن مالك وابن معطي الجزائري وجمع الجوامع في الأصول وتلخيص المفتاح للقزويني. وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني. وكتاب الفصيح لثعلب. وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت. وحفظ الكثير من شعر الفحول كديوان المتنبّي وديوان الحماسة ورسائل بلغاء العرب، مما أثر في تكوين شخصية الإبراهيمي الثقافية، ووجهه الوجهة التي سار عليها فيما بعد (السابق: 34).

هاجر الإبراهيمي إلى الحجاز حيث لحق والده عام 1911م مارا بتونس وليبيا ثم مصر التي "مكث بها ثلاثة أشهر، وكانت جهود الشيخين - جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده - قد أثمرت فيها... وكان الإبراهيمي خلال تلك المدة التي أقام بمصر يقضي نهاره وشطرا من ليله متنقلا بين المجالس العلمية والأدبية للاستفادة من العلماء والأدباء حتى شهد له بعض العلماء بالنبوغ في العلوم الشرعية واللغوية" (نفسه: 35). وعند وصوله إلى المدينة المنورة اجتمع بوالده وطاف بحلق العلم مختبرا فلم يفت شيئا منها يقول: « " إنما هي غشاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء «(نفسه: 35-36). وبعد فترة من المكوث بتلك البقاع انتظم وقته بين الأخذ والعطاء فلم يقتصر على ما يسمع من دروس شيوخه "بل كان يعتمد على نفسه في الدراسة ينتقل بين المكتبات باحثا ودارسا في علوم التفسير والحديث والفقه وأصوله، وفي علم الكلام والأدب والأخلاق، والتاريخ والمنطق والفلك وفي شتى فنون العلم والمعرفة" (نفسه: 36).

وفي فترة مكوثه بالحجاز التقى بالإمام بن باديس عام 1913م. وما من شك في أن تلك اللقاءات شهدت ميلاد فكرة تأسيس جمعية العلماء "الإبراهيمي، 1997: 10/1) وبدعوة من حكومة دمشق للإمام، انتقل الإبراهيمي إليها ليمارس تدريس "الأدب العربية بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر) وهي المكتبة العصرية الوحيدة آن ذاك، بالإضافة إلى إلقاء الدروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي وقد تخرج على يده جيل من المثقفين كان لهم أثر بالغ في النهضة العربية الحديثة" (نفسه: 10). وفي هذه الفترة لم تكن للإبراهيمي آثار مكتوبة. ولم يكن للبعد الجغرافي عن وطنه الأم أن ينسيه قضيته. فقرر العودة سنة 1920م وفي مخيلته فكرة حركة تحيي الإسلام والعربية في الوطن ونشر العلم، وتبعث الأمة. (نفسه: 10). وهنا كانت

بعض الرسائل وبعض المقالات والمحاضرات قد نشرت في مجلة الشهاب عام 1929م. و في عام 1931م تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان نائباً لرئيسها، و وضع قانونها الأساسي واختار تلمسان مركزاً لنشاطه. و بنا بها مدرسة دار الحديث سنة 1937م. نفي الإبراهيمي إلى قرية -آفلو - وبعد أسبوع تلقى خبر وفاة رفيق دربه الإمام بن باديس. وخبر اجتماع أعضاء الجمعية وانتخابهم له رئيساً "نفسه:11). أفرج عنه سنة 1943م وأعيد سجنه بعد أحداث مايو 1945م. وفي سنة 1946م "استأنف نشاطه، فبعث جريدة « البصائر » من جديد في السنة الموالية بعدما توقفت أثناء الحرب" (نفسه:12) سافر الإبراهيمي إلى المشرق للمرة الثانية عام 1952م للتعريف بالقضية الجزائرية فكانت مصر مكان انطلاقه أشرف فيها على أولى البعثات العلمية ومثل الجزائر في كل محفل. عاش الإبراهيمي ثلاث سنوات بعد الاستقلال، وتوفي مخلفا عدداً قليلاً من المؤلفات في الأدب واللغة ضاع أغلبها، وأهم هذه المؤلفات ما جمع من نثره الفني في عيون البصائر" (ابو منجل، ع م. 2009: 21). وقد تمت محاولة جمع ما ألف البشير في خمس مجلدات تحت عنوان "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي" الصادر عن دار الغرب الإسلامي.

### الرؤية والتشكيل:

الأدب نشاط إنساني وفعل بشري. و إذا كان الأديب فرداً من جماعة فهو يخاطبهم وهم يشاركونه كثيراً من أفكاره وانفعالاته ورؤاه العامة. و ليس لهذه الاتفاق معه في كل ما يقول لأنه بدوره يقدم رؤية خاصة يعطي فيها فهمه لما يراه بمفردات قد تجتذب إليها في أحيان كثيرة وقد نرفضها.

إن الأديب يأخذ فكرته الأولى من بيئة تحيط به، ومن خاصية اجتماعية يعيشها، ومن شرط تاريخي يدركه. وبهذا تتكون خاصية التعبير الأدبي أيا كان وتفرض سلطتها. وعلى هذا وجدنا إبراهيمي "صحفيا ماهرا وخطيبا بارعا يستعمل القلم البليغ في تدبيج المقالات الصحفية المتنوعة للإعلام والإصلاح، ويستعمل اللسان الفصيح في إلقاء الخطب والمحاضرات للتربية والتعليم والإرشاد، ويستعمل فن الرسالة لإدارة بعض شؤون جمعية العلماء ولشؤون أخرى عاطفية أو أدبية" (نفسه: 34) فكان فارسا لعديد فنون النثر كالمقال والخطابة والرسالة والسيرة الذاتية وأدب الرحلة. ووفقا للأسس الفنية المعروفة للمقال، كتب إبراهيمي وتميز بخاصية "الجمع بين الجمال الأدبي في الصياغة، والتعبير عن الأفكار والحقائق". (مهداوي، م. 1988: 133).

كان إبراهيمي ذا مذهب واقعي يدني المسافة بين الإنسان و واقعه، جامعا في ذلك بين التراث "أسلوبا ولغة" وبين المعاصرة "محتوى ومضمونا" في عمق والتزام وانفعالية وفاعلية فنية، بحسن الربط بين المفردات ومعانيها. فامتلك القدرة على الإقناع بما كان له من كثير حفظ لنصوص الدين والتراث شعرا ونثرا وأمثالا. في منهجية دقيقة وعرض منطقي، حاملا رسالة الإعلام والإصلاح والتربية والإرشاد، تقابلها سخيرية حادة ولهجة عنيفة عند مناقشة الخصوم لإفحامهم، يعلوها اقتباس جميل وتضمنين و محاكاة. لقد كان خطيبا رائدا دون منافس فكان "شديد العارضة، فصيح اللسان، ساعده في ذلك محصول من اللغة وفير، وإلمام بالأمثال وبراعة في حسن إجرائها في مضاربيها، ومعرفة عميقة بطرائق الكلام، والقدرة على التصرف فيه" (مرتاض، م. 1983: 281).

وأما عن رسائله لإخوانه المشحونة بالمشاعر الرقيقة الزاخرة بالصور الفنية الرائعة خاصة التي كتبها بمنفاه بأفـلو في رثائه رفيقه الإمام فقد "اجتاز بها حدود اللغة ليسبح في آفاق الخيال، ويرتفع عن بساطة التعبير ليملاً الرسالة بمختلف ألوان الصور، ويبرع في تسخير الألفاظ والتراكيب ليجعل من الرسالة متنفساً لمشاعره الزاخرة، وقطعة من الموسيقى تملأ الأسماع طرباً" (أبو منجل، ع.م. 2009: 34).

أما عن أدب الرحلة فقد سرد أحداثها بشيء من التوسع مع إبداء الملاحظات من كل موقف ومن كل ما يعجبه في حسن تخلص وأناقـة بأسلوب "إخباري مباشر، يعتمد على التسجيل والواقعية، و الوضوح في اللغة والتركيـب" (مهـداوي، م. 1988: 188).

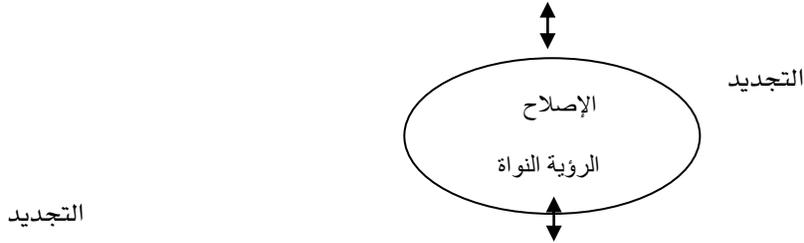
إنما لما طغى الحديث عن المحسنات البديعية في أنها قيد للفكرة، تؤذي وضوحها حتى أنها اتهمت بتهمة التأخير الفكري والانحطاط الأدبي، آثرنا الرد بما وسعنا الجهد والعلم، لنقول لهؤلاء: إن رؤيتكم عوراء، ترى أشياء وتعمى عن أشياء. إن هذا السجع وهذا الجناس وذاك الطباق وتلك المقابلة. في حقيقة الأمر ليست المسؤولة عن مظاهر الضعف. إنها أشكال والشكل ليس شيئاً دون يد الفنان التي تستعمل ريشة أو نصفها. إننا لا ندين الريشة إذا أخفقت في تقديم الأدب بل ندين الرأي والعقل الذي بصر واليد التي بطشت. فالرأي فحل إذا لأقحته براء، لا يستوي الشكل والرؤى عقم. وبهذا تنطلق المحسنات من الرؤية أو الفكرة ولا تبدأ بالشكل لتكون في النهاية شكلاً من أشكال التعبير عن تلك الرؤية. إنها نواة الفكرة التي تتحدث عنها، أو الواقع الذي نصفه، إنها شكل من البيان وليس زخرفاً .

إننا نحاول من كل ما سبق تقديمه. كشف العلاقة بصورة دقيقة بين رؤية الإبراهيمي للحياة والإنسان، وبين ما ينتج من أثر أدبي ولا يتأتى ذلك إلا

بفتح مغاليق هذا الإنتاج وقراءة الإبراهيمي، في سفر العربية الزاهر، الذي ثقف صاحبه أدبا وأمعن في القرآن معرفة وبيانا وصحب الحديث رواية ودراية وألم بمادة الأدب القديم.

لقد بدا لنا أن الدراسة لا تستقيم إلا بقراءة الإبراهيمي في قصة شعب احتجز مئة وثلاثين عاما عطلت فيه إرادته في الحياة وزج به في متاهات من الأفكار والأنظمة الخبيثة. ولتقديره بما هو جدير به، كانت ضرورة الاطلاع على مختلف الأبعاد الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وفهم تطور الوعي في المجتمع الجزائري الذي تطورت معه أساليب المقاومة والجهاد من أجل التحرير والاستقلال. ومن هنا تصح فرضية أن "أي عمل عقلي أو إبداعي ينطوي على رؤية كونية للعالم، هذه الرؤية ليست بالضرورة رؤية المبدع أو المفكر، إنما لها جذور اجتماعية وثقافية ودينية وفكرية في المجتمع الذي ينتمي إليه المبدع أو المفكر" (صدار، ن. 2013: 223). فهي بهذا ليست فردية بقدر ما هي جماعية، إنها صورة العالم وتعبير عن ماضي وحاضر ومستقبل الإنسان، "إنها كل ما هو تعبير من الكاتب عن قسم من فلسفته للحياة في أدبه، وهي أيضا تجربة جمالية تعتمد على تنامي استبصار القارئ فيها بغية التماهي النهائي مع وعي الأديب ومنه فإن الرؤيا نظرة شاملة وليست فلسفة شاملة." (محمد الفقير، س. 2009: 09) وعليه جاءت الرؤية النواة ومكوناتها بهذا الشكل البياني:

( الإسلام والعروبة )



## المحور الثاني: مكونات الرؤية عند البشير الإبراهيمي

### 1- الإسلام والعروبة :

الإسلام والعروبة ثنائيتان لا ينشز طرف منها عن طرف، فلا إنسان دون لسان وفكر ووجدان. اللسان و الفكر مجتمعين ترجمانهما الوجدان الذي يوصلنا إلى ثقافة ما، الثقافة هي التاريخ الإرادي للإنسان وقلبه الذي يفوق مستوى أي محاولة بشرية لكي توقفه. وهي بمصطلح اللاوعي الثقافي إجراء نقدي. يسمح بالكشف عن مكونات الرؤية التي تتمظهر في إبداع وسلوك الإنسان الأديب ليأتي الإنتاج الفني كذلك بمشيتها.

إن من القوميين من لا يرى للإسلام تأثيرا حد التعصب للعروبة. وأن القومية فوق كل شيء. وإن من الإسلاميين من بلغ حد الإنكار بفضل العربية والعروبة في شعوبية مقيمة. وكلا الأمران مجانبا للصواب. ومنه نتجه إلى ما حمل الإبراهيمي وجمعية العلماء على الذوبان في العروبة المسلمة والإسلام العربي حد التقديس والاحتواء لتكون هذه الثنائية هي الذهنية والمشرب الإيديولوجي، أو المرجعية المعرفية، أو الرؤية للعالم، وهي ثابتة بين آل بيت الجمعية المسلمة. الذين شربوا العقيدة الصحيحة من منبعها. فأدركوا أن أمر آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، وأشربوا عروبة قحة ذلك أن العروبة طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله دون الإسلام، كمثل أرض أهمل زراعتها فنتب فيه المؤذي من الشجر وعاش فيها المؤذي من الدواب. فلما طهرت وبذرت بالبذار الطيب الذي هو الإسلام آتت أكلها ضعفين. ولنا في الإبراهيمي المثال الحسن.

إنه لما كادت الجزائر أن تكون فرنسية بمساعي المستخريين، كان الإبراهيمي ومن معه يوجدون وعيا قائما نبيلًا، شرعيا، إسلاميا، عربيا، جزائريا. يواجه وعيا زائفا أو فلنقل واقع حال خبيث. هذا الوعي استمد وجوده من البيئة والتربة التي نشأ فيها الإبراهيمي، وكما سلف وأن ذكرنا في معرض سيرته في المحور الأول.

استغلت أسرة الإبراهيمي مرحلة نشأته أحسن استغلال لتكون له شخصية وحسا فريدا من نوعه على قاعدة قوية ومنهاج قويم، لقد نهل من الشريعة ما ينهله العلماء الريانيون العاملون، فكان ذلك عاملا أساسيا في تكوين شخصيته الإسلامية العملية، ونهل من علوم اللغة العربية وآدابها ما ينهله المرید الشغوف بتحصيل العلم. وكان العامل الأقوى في بناء شخصيته الأدبية واللغوية، يقول عن نفسه: "ولم يزل عمي رحمه الله يتدرج بي من كتاب إلى كتاب تلقينا وحفظا ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادي عشر، فبدأ لي في دراسة ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهم وبحث وتدقيق...ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أمشي في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة، حتى يغلبني النوم، ولم يكن من ذلك شيء لي رهقني لأن الله تعالى وهبني حافظه خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهنا صيودا للمعاني ولو كانت بعيدة. ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت، بحيث أنني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة" (الإبراهيمي م. 1985: 14) كل هذا كان له الأثر البالغ في صقل موهبته وفكره وإنارة بصيرته بما فقه من أسرار اللغة العربية وما عرف من أساليبها وتراكيبها، وعند سفره إلى أرض الحجاز "درس فيها على كبار

علمائها - الوافدين من كل أنحاء العالم الإسلامي - علوم التفسير، والحديث، والفقه، والتراجم، وأنساب العرب، وأدبهم، ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية، وأمّهات كتب اللغة والأدب، ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثاً عن المخطوطات. " (الإبراهيمي، 1997: 10.09/1)

لقد حصل العلوم واختار الشيوخ ك"الشيخ محمد العزيز الوزير التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي...لازم الأول في دروس الفقه حتى أخذ عنه الموطأ رواية ودراية. وكذلك شرح سيرة بن هشام. كما لازم الثاني في دروسه لصحيح مسلم" (مهداوي، م. 1988: 44). اختارهما لفصاحتهما ولدقة ملاحظتهما ولاستتارة فكرهما. وأخذ"علم التفسير عن إبراهيم الأسكوبي، وأخذ الجرح والتعديل وأسماء الرجال في علم الحديث عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري، وقد أخذ أنساب العرب والأدب الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد بن عبد الله زيدان الشنقيطي، الذي كان أعجوبة زمانه في حفظ اللغة وأنساب العرب". (نفسه: 44).

إن هذه النشأة التي نشأها الإبراهيمي وتلك الظروف التي هي حكمة الله وعنايته له، في الإسلام الذي فطر عليه والعروبة التي أحبها والقرآن الذي حيي به كانت أسباباً مباشرة في تكوين تلك الرؤية. فالإسلام في نظر الإبراهيمي هو "دين التحرير، وهو النبأ الذي كان أصحاب الأرواح الصافية يتربون به، وهو المنية التي كانت تملأ نفوس الأصفياء المصطفين الأخيار من عباد الله ثم ماتوا قبل أن تتحقق" (الإبراهيمي، 1997: 20/1) وأن العرب "من أعرق الأمم في التاريخ، وأنهم من أكثرها محافظة على الفطرة الإنسانية، يشيع ذلك في أمثالهم، وأخلاقهم، وأدبهم، ولأن الله أكرمهم باختيار آخر أنبيائه وخاتم رسله منهم". (نفسه: 21.20) إن النزعة الإسلامية عند الإبراهيمي

تظهر في "دفاعه عن الإسلام ومقدساته. كما تميز بمقدرة فائقة على الجمع بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الحديثة، وبالرغم من اتجاهه السلفي فإنه لم يكن من المحافظين الملتزمين، وإنما كان رجلاً متتوراً متفتحاً على علوم عصره وحضارته. يعيش هموم شعبه، وينفعل لأحداثه وتطوراتها ويقراً في سائر فروع العلوم الإنسانية" (مهداوي، م. 1988: 37.38).

لقد جاء تشكيكه الفني تعبيراً عن ذلك الحس العربي الإسلامي أسلوباً وموضوعاً، وهذا نتيجة لتحكم تلك الرؤية بدورها في هذا التشكيل، الذي جرى به القدماء من أرباب البيان فجمع بين الأصالة والتجديد، فكان مدرسة فريدة في عبقرية أدبية راقية وفن أصيل. إن كل هذه المرجعيات المعرفية والخلفيات الثقافية -العربية والإسلامية - جعلت أدب الإبراهيمي يتجه الوجهة التي وجدناه عليها فمن الجزالة في الألفاظ والقوة في التعبير والسمو بالتركيب اللغوي والرجوع إلى العربية الفخمة الأصيلة إلى التربع على عرش الإصلاح بهذا الأدب. فجاء تشكيكه الفني بمشيئة تلك الرؤية أسلوباً وموضوعاً.

## 2- الإصلاح والتجديد:

لقد بلغ الإبراهيمي مرتبة زاكية في العلم والتبصر والوعي بما يحيط به، وبما يكيد الاستخراب الفرنسي، ضد الجزائر وشعبها، من سياسة محو المبادئ والمقومات الوطنية. هذا المستوى من الإدراك، أضحى هما وحملًا ثقيلًا على عاتق الإبراهيمي ومن معه، ومسؤولية أمام واقع الأمة التي عاشت وتعيش مشاريع إطفاء النور وطمس الهوية .

الإصلاح كما جاء في لسان العرب "تقيض الإفساد" (ابن منظور. 1992: 517) وهدفه "تحسين الشيء والانتقال به من حالة هو عليها إلى حالة أفضل ولكن بطريقة تدريجية تعتمد على المرحلة في العلاج للوصول

إلى الحالة المثلثى للشيء أو الأمر" (عجالي، ك. 2005: 32). وإن من الناس من لا يفرق بين الإصلاح والتجديد. إذ الإصلاح إرجاع الشيء إلى طبيعته التي عرف بها في أصله. والتجديد هو إرجاع الشيء إلى "حالة الجدة، أي الحالة الأولى التي كان الشيء عليها في استقامته وقوة أمره، وذلك أن الشيء يوصف بالجديد إذا كانت متماسكة أجزاؤه، واضحا رواءه، مترقفا ماؤه، ويقابل الجديد الرثيث، والريثانة انحلال أجزاء الشيء، وإشرافه على الاضمحلال". (بن عاشور، م. 1985: 112)

كان الإصلاح عند الإبراهيمي شرطا أساسيا وطريق مقاومة أولى ووحيد، وذلك بصناعة جيل من الشباب المؤمن بدينه وبعقيدته الصحيحة ويعروبه ووطنه. والعمل على إصلاحه وتربيته ليكون مقاوما خالصا وليردع سياسات الظلام الفرنسي. استمد الإبراهيمي رؤيته الإصلاحية التجديدية من ثلاثة مشارب:

**الأول:** ملازمته للمشايع الصالحين الذين أخذ عنهم العلم، والأدب. فالبداية بعمه الشيخ المكي بالجزائر. ثم " الشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت، والشيخ يوسف الدجوي. كما استمع إلى دروس الشيخين عبد الغني محمود، والسماطوطي في المسجد الحسيني، وحضر مجالس الشيخ سعيد الموجي بجامعة الفاكهاني، في رواية الموطأ. كما حضر بعد ذلك عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ رشيد رضا" (مهراوي، م. 1988: 44). كما تأثر الإبراهيمي بثلة ممن عاصره من العلماء المصلحين كأبي الأعلى المودودي و محمد بهجة البيطار، و محمد الطاهر بن عاشور، و محمد عبده، و رشيد رضا، و ابن باديس.

**الثاني:** تأثره بالحركات الإصلاحية التجديدية في البلاد التي زارها خاصة الحجاز، والتي أخذ العلم بها. حيث أن تأثره لم يكن أمرا مستبعدا ولا

عسيرا. كيف لا وهو ذو دين صحيح وعقل قوي وفكر سليم يجلي الأصيل من الزائف بفطنته وسرعة بديته، بما حباه الله من نور في البصيرة، وصفاء في السريرة. فمن التأثر بالحركة الوهابية السلفية بالحجاز. إلى التأثر بالفكر الإصلاحي التجديدي عند جمال الدين الأفغاني و محمد عبده ومصطفى كامل وعبد الرحمان الكواكبي وعبد الحميد بن باديس ... الذين جمعهم أهداف واحدة. كمواجهة الحركات التبشيرية النصرانية، وعدم فصل الدين عن الدولة، و توحيد الأمة الإسلامية و تفيقه الناس في دينهم ، ومحاربة البدع و الطرقية الخارجة عن الإسلام.

**الثالث:** من وعيه القائم على وجوب إصلاح العقول وتحرير الأرواح من ريقه الذل. لأنه أدرك أن الجزائر بحكم القوانين الطبيعية لا قبل لها بمقاومة الحضارة الغربية بما تملكه من وسائل علمية. وإمكانات حربية واقتصادية. وإنه سرعان ما يصبح الشعب الجزائري مجرد مجموعات من الأفراد. والقبائل لا رابط بينها. مقطعة من أمجادها المنسية. مقتطفة من حضارتها المندثرة. مسلوبه الإرادة لاضمحلال عقيدتها . معدومة القوى لفقدانها أدوات الكفاح المادية و الروحية .

لا بد لنا ونحن نقارب مكونات الرؤية الإصلاحية التجديدية عند الإبراهيمي بخاصة وعند آل جمعية العلماء. أن لا نغفل الجانب التاريخي منها أي تاريخ الإصلاح في الجزائر. "فلا يمكن فصل ما هو تاريخي عن الاجتماعي والديني والأدبي والنفسي" (صدار، ن. 2013: 310) لقد ظهرت النزعة القومية الإصلاحية التجديدية كردة فعل ضد "الغزو الفكري الاستعماري الذي يشكك المسلمين في تاريخهم وتراثهم للقضاء على مقومات وجودهم وجعلهم كمية مهملة في ميزان القوى العالمية." (فضلاء، م ط. 1967: 155) إن تاريخ الإصلاح في الجزائر كان منذ "نهاية القرن التاسع عشر، وتؤكد ذلك

بصورة جلية واضحة بعد زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر في سبتمبر سنة 1903م (عجالي، ك، 2005: 32)، الذي كان تلميذا لجمال الدين الأفغاني والذي سار في ذات طريقه الإصلاحي، فقد عرف محمد عبده بالإصلاح الديني، ذلك لتأسيسه مدرسة فكرية ودينية وعلمية وتربوية لمقاومة الاستعمار. ومن الذين برزوا في هذه المرحلة في الجزائر، نذكر الشيخ عبد القادر المجاوي (1913م إلى 1848م) الذي عرف برسائله الشهيرة -إرشاد المتعلمين - وتخرج على يديه الشيخ حمدان لونيسي الذي سيصبح فيما بعد أستاذ ابن باديس والشيخ أبو القاسم الحفناوي (1942م إلى 1852م) المفتي المالكي الذي درّس في الجامع الكبير بالعاصمة مساهما بذلك في توضيح صورة الماضي في أذهان الجزائريين خاصة في المحافظة على التراث الثقافي، والشيخ مصطفى بن خوجة (1915م إلى 1865م) الذي اهتم كثيرا بشؤون المرأة الجزائرية وبنشر أعمال المفكرين المسلمين وتحقيقها والشيخ عبد الحليم بن سماية - (1933م إلى 1986م) رائد الاتجاه السلفي في الجزائر وكان مدرسا في المدرسة الثعالبية الرسمية في العاصمة وهو الذي أصدر فتوى تحرم محاربة العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى" (طهاري، م، 1999: 10) وانطلاقا من هذه الأسماء التي تركت أثرها في سماء الإصلاح نبغ طلاب قد تأثروا بما خلفت من فكر وعقيدة حملوا مشعل الإصلاح والتجديد فكان بهذا: الإصلاح في الدين بتطهير العقيدة من البدع والخرافات و من الزوايا الطرقية والصوفية المنحرفة، ومحاربة العملاء من الأئمة ، مع الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة وترك المنكرات والآفات الاجتماعية من الأقوال والأفعال. وكان الإصلاح في المجال الاجتماعي بالحث على طلب العلم والتحذير من الجهل واكتساب المهارات المهنية وتعلم الحرف والصنائع. وكان الإصلاح الأدبي والثقافي في بناء المدارس ودور الحديث والنوادي والجمعيات والصحف

لتوحيد الفكر وإحداث رقي فكري ونهضة مادية تعود على الأمة بالنفع حتى وان لم يكن عاجلا فهو آت لا محالة آجلا لأن الرؤية كانت ذات أبعاد أطول وأعمق. وكان الإصلاح السياسي بتكوين الجمعيات التي تعمل على تصفية الاستعمار ، وتدويل القضية الجزائرية وتمثيلها في المحافل الدولية ومساندة الحركات الإصلاحية في العالم أجمع.

إن الرؤية الإصلاحية عند الإبراهيمي. هي الرؤية النواة. وأن ثنائيتي الإسلام والعروبة ما هي إلا قاعدتها المكونة والمؤسسة لها. والتجديد ظل الإصلاح و رديفه. وأن الوحدة والحرية ثنائية ناتجة عن الإصلاح وثمرته.

### 3- الوحدة والحرية:

إن الغاية الأسمى التي كان ينشدها الإبراهيمي ومن معه هي وحدة الأمة و حريتها، ولقد كان لسلف هذه الأمة ما أرادوا حين نهجوا سبيل الإصلاح واتحدت كلمتهم على الحق. فالإبراهيمي أراد أن يحمل الأمانة كاملة للأجيال اللاحقة لأ لا يكونوا دولة بين المتربصين بالأمة الدوائر. الإسلام حرر العقل وحرّم ما يعطل طاقته لأنه مناط التكليف وآلة التأليف، والعقل المريض ينقاد بسهولة ويذعن أمام الشبهات والشهوات. ولذا نجد الإبراهيمي يعلن حربا شعواء على الوثنية بأنواعها لأثرها البالغ على النفوس والعقول وأحل التوحيد مكانها فحرر العقل من ربقتها وشرورها. إن الوحدة والحرية في فكر الإبراهيمي قاعدة عامة وشاملة للفرد والمجتمع ولأرض وليس التحرر فقط رفع الاستغلال والظلم عن مجتمع مستضعف. يمارسه عليه كيان أجنبي فقط بل هناك تحرر أيضا من بني

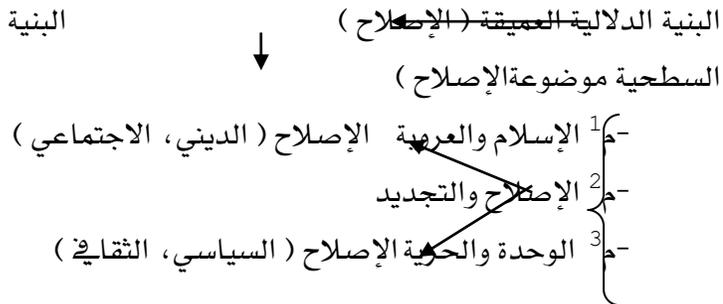
الجلدة الواحدة الذين يصلون لقبلة واحدة وغايتهم استغلال الأمة. فهؤلاء يُذلون وألئك يُضلون وجميعهم يفسدون.

إن المكونات الرؤية عند الإبراهيمي من ثقافة إسلامية صحيحة وعروبة أصيلة تطلب مجتمعا موحدًا في عقيدته. متحررا من الخضوع للمحتل ومن التبعية بكل أنواعها: الثقافية، والاقتصادية، والسياسية. إن اتحاد الشعب الجزائري من عرب وبربر كان الخطوة الأولى التي سعى إليها الإبراهيمي ومن معه، وما الإبراهيمي إلا عقلها المفكر ولسانها المعبر وداعيتها المذكر. وهو حين يدعو إلى وحدة الجزائر، فوحدة الشمال المغربي، فوحدة العرب كلهم من الخليج إلى المحيط. و نجده يحذر من همزات الاستعمار وكيد على الإسلام والعروبة، وإن العروبة التي يدعو إليها ليست عنصرية ولا شعوبية بل هي عروبة لغة وثقافة .

## □ المحور الثالث: بنية الخطاب النثري عند الإبراهيمي

### 1- التشكيل الموضوعاتي:

لقد كان لتلك الرؤية التي امتلكها الإبراهيمي ومكوناتها أن شكلت ذلك اللون الفريد من موضوعات نثره الذي نأتي على مقاربتة. فالبنية الدلالية العميقة أو اللاوعي الثقافي للإبراهيمي هي العامل المؤثر في تشكيل هذه الموضوعات. ولنا أن نجمل رؤيته النواة و ما ورد من مواضيع في نثره بمشيئتها. في ما يلي:



من هنا نلاحظ بأن التشكيل الموضوعاتي عند الإبراهيمي لم يخرج عن الإصلاح في شتى المجالات، والتي ذكرنا هي الغالب في مواضيع نثره، التي تتسم في عمومها بـ "الالتزام" و الرسائلية لا تنفك حقيقة قائمة فيه، إن الإبراهيمي مستغرق إلى الأعماق في قضايا أمته، فإذا كتب لا يكتب إلا عن حالها وإشكالاتها وآمالها، وإذا عبر فلا يعبر إلا عن حقيقتها ومقوماتها ورجالها وأبطالها". (أبو منجل، ع.م، 2009: 60)

إن السبب الأساسي لهذا التشكيل الموضوعاتي في نثر الإبراهيمي هو "الظروف التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في عصره، والرسالة التي كان يحملها هو لإنقاذ بلاده، فقد كانت تتحكم في البلاد سلطتان واضحتان: سلطة الاستعمار الفرنسي، وسلطة الجهل والطرقية". (نفسه: 61) فكان الإمام مدافعا مصلحا لما أفسدته السلطتان ومصلحا مرة ثانية لينشأ جيلا يعلم ما له وما عليه تجاه أمته حتى يحررها. فبتكوين و إصلاح الفرد يصلح المجتمع ويحصل النصر. ولقد كانت هذه الثمرة في جيل أول نوفمبر الذي حرر البلاد بتوفيق من الله.

لقد كان الإصلاح أساس الكتابة عند الإبراهيمي فجاءت مقالاته متنوعة شملت مختلف مجالات الحياة الاجتماعية الإسلامية ولذلك كان له منهج إصلاحي سليم فالبداية بـ "تصحيح العقيدة، وتربية المجتمع على التمسك بأصول الإسلام من كتاب وسنة، وتزويده بالوعي والعلم والفتنة". (نفسه: 76). فمن تشكيلات موضوعة الإصلاح الديني في نثر الإبراهيمي ما جاء متفرقا في آثاره فمقاله "الإسلام والمسلمون، شجون من الحديث عن الإصلاح الديني الاجتماعي" (الإبراهيمي، 1997: 107/1) شمل عدة عناوين كوحدة الدين، والإسلام والتاريخ، فالإسلام والبيان العربي، فهدي الإسلام في البيان العربي، فالتربية الإسلامية والنقائص

البشرية، فبعد المسلمين عن الهداية الإسلامية، فخيانة المسلمين على الإسلام، فشدة تمسك المسلمين بالنسبة للإسلام. ومن خلال هذا التكتيف في العناوين عند الإبراهيمي نجد يتناول الموضوع المراد طرحه من كل جوانبه، فلا يدع شاردة ولا واردة ولا قضية ولا أمرا إلا ونبه إليه وعالجه وأفاض في طرح أطرافه فيشفي غليل القوم ويفحم الأعداء. ويسفه أحلام المرجفين.

وأما في "تعالوا نسائلكم" (نفسه:113) فقد تحدث عن حقيقة الإصلاح وحقيقة الدين والاتباع وهجر الابتداء. فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء وبالأفعال لا بالأقوال. يقول في رده عن المغالين والمدعين التدين والاستقامة والمخرجين الناس المخالفين لمنهجهم من الاستقامة ونعتهم بالوهابية. وتبيين النهج السوي: "ونحن - والله - فقد أصبحنا تجارا حاذقين لا يخفى علينا ما يدق وما يجل من أباطيلهم وأوهامهم التي قادوا بها الأمة المسكينة إليه، ونداوي منها ما جرحته تلك الأيدي القاسية. وفرق ما بيننا وبينهم أننا ندعو إلى السنة وهم يدعون إلى البدعة ونحن ندعو إلى أخوة الإسلام نشد بكتاب الله حبالها ونجمع بسنة رسول الله أصولها وهم يدعونها إلى الفرقة والفرق وخلاف الطرق. وفرق آخر بيننا وبينهم أننا نذكر الأمة بكتاب الله وما صح من سنة نبيه وهم يذكرونها بالطبل والمزمار." (نفسه:120).

ومن تشكيلات موضوعة الإصلاح الديني الاجتماعي ما جاء في الاجتماع العام الخامس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي عقد بنادي الترقى بالجزائر العاصمة في سبتمبر 1936م. خطبة للإبراهيمي ألقاها صبيحة أول يوم من أيام الاجتماع، بعنوان "الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي" (نفسه:281). وعمل الإبراهيمي من أول يوم من تكوين الجمعية كان "لإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي وكل ذلك يسع

الإسلام وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها...فالإسلام دين واجتماع. ( نفسه:283). وإن من هذه المواضيع: "التعاون الاجتماعي" (الإبراهيمي،أ.1997/50) والإنسان أخو الإنسان" ( نفسه:59) و"من مشاكلنا الاجتماعية" (الإبراهيمي،أ.323/2) هذا العنوان الذي شمل عدت مقالات فمن الشبان والزواج إلى الطلاق إلى الصداق وهل له حد. ومن هنا نستنتج أن للإبراهيمي رؤية تسع كل مناحي الحياة فهو يعالج جميع مسببات الإصلاح دون احتقار، فيولي الأذى اهتماما والأعلى اهتماما أعلى وهذا ديدنه في كل مسألة يعالجها. ونجده كذلك يركز في مقالاته على معاول البناء والإصلاح الاجتماعي خاصة المثقفين و المعلمين منهم يقول: " أي أبنائي المعلمين: إنكم جنود الإصلاح، فأصلحوا نفوسكم وداووها من داء الأنانية والغرور و تلاقوا على الحرفة الجامعة بالأخوة والتعاون، والتساند والتضامن. إنكم من جيل فتح آذانه على نغمة مترددة كثر لوكها حتى أصبحت دعوى كل مدع، وشعوذة كل مشعوذ، وهي خدمة الأمة، وخدمة الوطن. وإن أشرف خدمة يقدمها العاملون المخلصون لأمتهم ولوطنهم هي التعليم والتربية الصالحة، فهما سلم الحياة وإكسير السعادة." (نفسه:115). وكثيرا ما كان الإبراهيمي يجمع في مقالاته الإصلاحية بين إرشاد بني وطنه وإصلاح شأنهم، وضرب المثال الحسن للناشئة وبين إغاطة الأعداء وتبيين مكامن قوة المسلمين. يقول في مناسبة السيول التي جرفت أحواز تبسة: "وواجبنا في مثل هذه المواقف أن نضرب المثل الأعلى للإحساس المشترك والشعور الإنساني والقيام بما يقتضيه منا الواجب الديني والوطني، وبذلك نضرب الرقم القياسي للأجيال الآتية بأننا أناس نشعر بالمسؤولية ونتحمل أعباءها مهما عظمت." ( نفسه:188) فكان الإبراهيمي بهذا يغتتم الفرص فيصير النعمة موضوعا إصلاحيا ينبه به. ويصير النعمة موضوعا إصلاحيا يرشد به

وهذا ديدنه، ففي مقال كتبه إثر زيارة - إنعام الله خان - الجزائر، وهو شخصية باكستانية مسلمة . بعنوان "من ثمرات الأخوة الإسلامية." (نفسه:375). حيث يشيد بخصال الرجل ومساغبه من أجل الوحدة والدعوة إلى مؤتمر إسلامي يجمع المسلمين كافة ليناقدش آمالهم وآلامهم. يقول: "الأستاذ إنعام الله خان يمثل ديمقراطية الإسلام الصحيحة، فهو يتمنى الخير لجميع الناس بشرط أن يكون حظ المسلمين من ذلك الخير موفورا، ومكانتهم بين الناس محترمة." (نفسه:376)

ولنا أن نتجه إلى مقالات إصلاحية أخرى يحرص فيها الإبراهيمي على تبين حقائق الدين ناصعة خالية من التعقيد والابتداع ( أبو منجل، ع م.2009: 83). فمن موضوع "عيد الأضحى وفلسطين" (الإبراهيمي، أ:2/526) إلى "عيد الأضحى" (نفسه:529) إلى "أثر الصوم في النفوس" (نفسه:538) إلى "معنى العيد" (نفسه:543).

نستنتج مما سبق أن للرجل إنتاجا أدبيا "إصلاحيا حيا وراقيا، يضيء السبيل للمصلحين مما سطره من فلسفة للإصلاح الديني، ويقطع الطريق على الطرقيين وأهل الضلال في الدين بما كشف من بدع المضلين وعرى من حقيقة أهل الطرق المبتدعين، فأفحمهم حجة، وأذاقهم مرارة الهزيمة والفضيحة، وأنقذ الأمة من كثير من شرورهم، إذ أعاد للإسلام صورته المشرقة، وأوضح للناس حقيقته الناصعة الناضرة" (أبو منجل، ع م.2009: 76).

وإن من تشكيلات الإصلاح السياسي الثقافي ما كان على شاكلة الأول. ففي مقال نشر في العدد الثالث من جريدة البصائر 1947م بعنوان: موقف الجمعية من السياسة والساسة. بين فيه الإبراهيمي معنى السياسة وحذر بشكل أو بآخر من عواقب انزلاق و انحراف التسييس إن لم بين على مقاصد صحيحة ويخص في هذا الشأن سياسة الاستعمار ، يقول: "على أن

معنى السياسة عندنا - في ترده بين طريف السعة والضييق - يتسفل دائما ولا يعلو، ويبتذل دائما ولا يسمو، ويوشك هذا اللفظ بسوء تصريف الاستعمار له أن يصبح بلا معنى كالألفاظ المهمة... أما إن السياسة تكون خيرا لأقوام، وشرا لآخرين، وتكون عقود حلية كما تكون عقد خنق، فهذا ما قرأناه في قاموس الاستعمار وعلمناه من مذاهبه" (الإبراهيمي، 1: 38/39).

ويبقى التشكيل الإصلاحي دائم الحضور، فهو بهذه الكتابة يصلح السياسة والساسة الفاسدين. وينير للمتخلفين السبيل. ويثقف الجاهلين بحقيقتها. يقول عن السياسة الحقبة " إن أعلى معاني السياسة عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنظام، وحيطة الشعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحيل على الضعيف ليأكل، وقتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهددة للنائم حتى لا يستيقظ." (نفسه: 39). لتأتي بهذا مقالات الإبراهيمي في مواجهة صريحة ضد سياسات الاستعمار، وكله أنفة بأن للجزائر رجالا يفقهون كواليس مسرحية طويلة هي من صميم الواقعية لمن وقف على شرور الاستعمار ومن صميم الخيال لمن لم يرع شروره. فلم يكن " الإبراهيمي رئيس حزب، ولا مناضلا سياسيا ينحصر كل همه في السياسة، ولكنه كان ممثلا للإسلام، منطلقا من حقيقته الكاملة وتعاليمه الشاملة التي تشغل حياة الإنسان بمختلف مجالاتها. ولذلك لم يكن يكتب في السياسة، ويحرر فيها المقالات الطويلة هوية وتخصصا، أو حبا للمجادلة والمخاصمة، وإنما هي رسالة يحملها وأمانة يؤديها في حق مجتمعه وأمته، لأن الإسلام يقضي ذلك." (أبو منجل، ع م. 2009: 63).

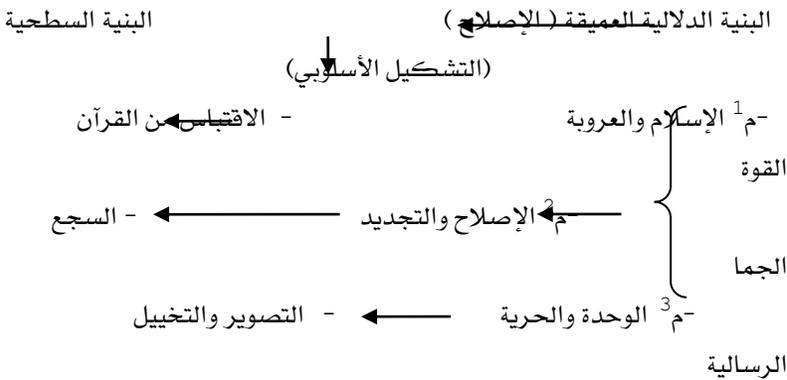
وكتب الإبراهيمي عن الإصلاح السياسي والثقافي، فمن يخوض غمار معارك سياسية حتى وإن لم يكن سياسيا. فيجب أن يكون مثقفا له وعي بالحراك الذي من حوله. ولذلك كان الإبراهيمي كثيرا ما يوجه وينصح وبذلك يصلح الرجال ليكونوا معاول بناء ويزكي في الأخير من هو أهل لهذا الشأن أو ذلك. ففي مقال بعنوان "تقرير إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية بالجزائر" (الإبراهيمي، 1.1997/133) حين أستدعي الإمام من طرف هذه اللجنة للاستماع إلى رأيه. وكتب وأسهب في الكتابة عن موضوع فصل الدين عن الحكومة وخاصة ما تعلق الأمر بالأديان الثلاثة في الجزائر. وبين سماحة الإسلام فيه وسياسته في التعامل مع الشرائع والمثل.

وكتب الإبراهيمي عن "واجب المثقفين نحو الأمة". (نفسه : 122) فبين خصال السلف المثقفين و أوجب الرجوع إلى النهج السليم. فالمثقف عنده " هو الرجل المهذب المستتير الفكر، المجوهر العقل، المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معارف عصره." (نفسه:125) وكتب عن "منزلة المثقفين في الأمم الحية". (نفسه:126). فهم "خيارها وسادتها وحراس عزها ومجدها" (الإبراهيمي، أ.ج.2.1997.126) وكتب "كيف يؤدي المثقفون واجبهم" (نفسه:127) وهو بهذا لم يكتف بسرد أحوال المثقفين، بل يرشد ويصلح ويبين كيف يكون عملهم السليم. الواجب على المثقفين في نظر الإبراهيمي هو إصلاح أنفسهم قبل كل شيء، تم إكمال نقائصهم العلمية واستكمال مؤهلاتهم التحصيلية حتى يصلحوا لتثقيف غيرهم، ثم إصلاح المجتمع بالتعارف والتقارب في الأفكار، والسعي إلى فهم الحياة، والوقوف على معنى الثقافة الحقيقية. إن الطريق الذي يأمله

الإبراهيمي لأتمته هو طريق العلم والاجتهاد ، فنصيحته للمثقفين في نهج سبيل الاستقلال الفكري بمنطق يعزف عن التخريف والباطل.

## 2 - التشكيل الأسلوبي:

إن من التشكيلات الأسلوبية المهيمنة في نثر الإبراهيمي والتي تجسد رؤيته الإصلاحية ومكوناتها من إسلام وعروبة وإصلاح وتجديد و وحدة وحرية مثلما جسدها مضامينه. الاقتباس من القرآن، والمحسنات البديعية وفي طليعتها السجع والتخييل والتصوير. ومن الخصائص الفنية العامة في نثره الأناقة في الأسلوب والسخرية والأسلوب القصصي، واللهجة الخطابية، والواقعية، والموازنة، والأثر المنطقي. فكان أسلوبه ثمرة لعبقرية أنضجتها عوامل الزمان والمكان والحضارة" (بوحسون.ح.2011:10) ولأن الإبراهيمي في مقام الإصلاح والدفاع عن حوبة الإسلام، والعروبة، والجزائر. فلا بد له من أسلوب مخصوص يكون في مقام الحال. وهذا ما اشتمل عليه نثره. إلا أننا في مقارنة أسلوبه اتجهنا إلى ثلاث خصائص كما هو مبين في المخطط.



إن من شروط الإمام أو الداعية إلى الحق أن يكون حجة في قلوب الناس حتى يلقى القبول. وهذا ما كان عليه الإبراهيمي فتدينه القويم وفقهه العليم وحفظه السليم. جعل منه وهو في مقام الإصلاح والإرشاد حجة. فكان القرآن الكريم منطقته والسنة الغرة دليله وهما مكمّن القوة لفظاً ومعنى فاستاده إليهما في اقتباس وتضمن. وهبه قوة يهابه بها أعداءه والتي يعز بها أنصاره . وإذا كانت القوة الحقّة السامية مقرونة دائماً بالجمال وهو محرّكها، فالسجع من أنبلها لغة ونغما ووقعا على الأسماع ودفعا للرتابة والملل . وعلى هذا كان السجع ميزة أساسية في لغة الإبراهيمي. فالكلام المنتهي بفواصل متقاربة أو متشابهة المخارج ليضفي للكلام وزنا موسيقيا تطرب له الأذن. وبين القوة والجمال يأتي التصوير والتخييل لغرض الإفهام وتقريب المعاني وفي الأخير إيصال الرسالة للمتلقّي في تمثيل يدني البعيد إلى القريب حتى يوضّحه.

**الاقتباس من القرآن:** خاصية أسلوبية تميز بها الإبراهيمي، فجاء اقتباسه كله حسن جميل بعيد عن الذم لما كان يسري في اتجاه الوعظ والإصلاح والإرشاد، وجائز لا شبهة عليه. ولم ينزل فيه عن معنى مخالف لمراد الله. فكان منه الذي طرأ على لفظه تغيير بسيط ولم ينقل فيه المقتبس عن معناه الأصلي، ومنه ما نقل فيه المقتبس عن معناه الأصلي.

**فأما الأول فمثاله:** "ويجادل بالباطل ليدحض به

الحق" (الإبراهيمي، أ. 1997/3/430). فيه اقتباس من الآية: (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) الآية 56 سورة الكهف. وفي قوله: " فنعيذكم بالله وبالاسلام أن تتراجعوا أو أن تتكصوا على أعقابكم" (الإبراهيمي، أ. 1997/5/35) فيه اقتباس من الآية (قد كانت آياتي تتلى عليكم. فكنتم على أعقابكم تتكصون) الآية 66 سورة المؤمنون.

وفي قوله: "وكما أن الجن تعيد الإنسان ويمنيه. ولا يمنيه إلا غرورا. "(نفسه:80) فيه اقتباس من الآية (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) الآية 120 سورة النساء وفي قوله: " هذه الروح التي لبست تلك الفئة القليلة حين تراءت الفتان. "(نفسه:85) فيه اقتباس من الآية(وإني جار لكم فلما تراءت الفتان نكص على عقبيه) " الآية 48 سورة الأنفال" وفي قوله: "وتكلم القائد البطل عن أولئك البائسين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن قالوا: وطننا فلسطين"(الإبراهيمي،أ.1997.4/138) فيه اقتباس من الآية(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ) الآية 40 سورة الحج.

وأما الثاني فمثاله: " وهم في غفلة ساهون "(الإبراهيمي،أ.1997.3:422)فيه اقتباس من الآية(الذين هم في غمرة ساهون) الآية 11 سورة الذاريات. وفي قوله: "وجاءت فرنسا بالخاطئة" (نفسه:432) فيه اقتباس من الآية (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) الآية 09 سورة الحاقة. وفي قوله: "ما كان يظن أن يجلب الاستعمار على عرش من عروش الإسلام العريقة لا بخيله ورجله"(نفسه:423) فيه اقتباس من الآية(واستفز من استطعت منهم وأجلب عليهم بخيلك ورجلك)الآية 64 سورة الإسراء. وفي قوله: "فإنه يسلك فجاجا طامسة الأرجاء" (نفسه: 430) فيه اقتباس من الآية(وجعلنا فيها سبلا فجاجا لعلهم يهتدون) الآية31 سورة الأنبياء وفي قوله: "وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها"(الإبراهيمي،أ.1997.1:33) فيه اقتباس من الآية (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)الآية 122 سورة الأنعام. وفي قوله: " وفرنسا قد ألقمت ما فيها وتخلت"(الإبراهيمي،أ.1997.5:91) يه اقتباس من الآية(وألقمت ما فيها وتخلت) الآية 04 سورة الانشقاق. وفي قوله: " ولكن الذي يحزن الاستعمار فيكون

من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم " (نفسه:95) فيه اقتباس من الآية(قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم)الآية 38.37سورة الحجر وفي قوله: " ثلة من الشرقيين وقليل من الغربيين " (الإبراهيمي،أ.1997:47/1) فيه اقتباس من الآية(ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) الآية 40.39 سورة الواقعة. ولا تكاد مقالة أو خطبة من نثر الإبراهيمي تخلو من هذه الصنعة الجميلة. التي كانت بفضل قوة حافظته للقرآن وسرعة بديهته ونفاذ بصيرته.

**السجع:** إن كل الحسن في العنوية لا في التكلف، وخاصة إذا تعلق الأمر بالبديع. ونجد من السجعية في نثر الإبراهيمي الكثير. فتوافق الفواصل في الأحرف الأخيرة على أنواعه الذي تساوت فقره. فمنها "المطرّف الذي اختلفت فاصلته في الوزن، واتفقتا في الحرف الأخير"(الهاشمي،أ:330). ومنها " المرصّع وهو ما كان في ألفاظ إحدى الفقرتين كلها أو أكثرها مثل ما يقابلها من الفقرة الأخرى وزنا وتقفية. " (نفسه:330.331). ومنها "المتوازي وهو ما كان الاتفاق في الكلمتين الأخيرتين فقط." (نفسه:331).

فمثال الأول في قوله: "نفحات مسكّية، من الآفاق المكية، مازالت تخترق المناهل، وتستقرى المعالم والمجاهل" (الإبراهيمي،أ.1997:86/1) وفي قوله: " بل نفحات عنبرية، من شمائل خير البرية... بل صفحات مجلّوة، وأخبار متلوّة." (الإبراهيمي،أ.1997:86/5) وأما مثال الثاني ففي قوله: " فكونوا دون العرش صفا، وجمعا ملتفا، وساعدا وكفا، ودفعا للباغي وكفا، وذودوا عنه كل مريب، والقريب منه قبل الغريب. " (الإبراهيمي،أ.1997:398/3) وفي قوله: "... ويعتز بها ويفالي، ويعتد ويقالي... يصدقونه المحبة، والمحبة ملاك، ويصدقونه الهوى والهوى مساك" (الإبراهيمي،أ.1997:123/4) وأما مثال الثالث ففي قوله: " فلم ينل من لحوم نحائره حزة، ولا من أوبارها حزة" (الإبراهيمي،أ.1997:371/3) وفي قوله: " وللشرق تؤدون فرضه، وتردون قرضه،

وتصونون عرضه، وتطهرون سماءه وتحفظون أرضه" (الإبراهيمي، أ. 1997: 157/4) كل هذا شاع في نثر الإبراهيمي وزينه. ففقهه الواسع باللغة العربية وأسرارها ومدارسته لأمهات الكتب وأحفادها جعل منه فارس البيان. فكتب وأبدع وأجاز وقصد المراد دون كلفة أو مشقة.

**التخييل والتصوير:** تعبر هذه الخاصية الأسلوبية "بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ... وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة. تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات، بالشاعر و الوجدانات. فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عنها الحياة. - ينظر -" (قطب، س: 38.37.36).

ومما جاء من تصوير وتخييل في نثر الإبراهيمي: تشخيصه للإنسانية ومنحها الحياة رغم ما تلقاه من كيد يقول: "تلك الأم الرؤوم التي لا تحابي واحدا من أبنائها دون آخر، ولا تميز بين بار منهم وفاجر، ولا تفرق بين مؤمن منهم وكافر، تلك الأم المعذبة بالويلات والمحن... تلك الأم التي لو تمثلت بشرا لتمثلت بقول الشاعر العربي:

فلو كان رمحا واحدا لاتقيته ❖❖❖ ولكنه رمح وثنان

وثالث" (الإبراهيمي، أ. 1997: 62/1)

ومن الحركة المتخيلة التي تلقيها بعض التعبيرات قوله: "...إن الجزائر عربية مسلمة، فيشهد لنا التاريخ والدم، والأدب، والرفات، والأسماء

والسمات، وجولان الضاد في اللّهوات." (الإبراهيمي، أ: 121/2) فمقام الشهادة يخيل للحس من تاريخ ودم وأدب و... أنه مدافع عن الجزائر. ولو حذفنا - يشهد - لاختفى التخيل. ومن الهيئة المتخيلة قوله: " جاء الإسلام إلى هذا الشمال فوجد من اليهودية عرقا ناشزا منتبرا، ومن النصرانية عرقا سائسا نخرا." (نفسه: 61) فصورة العرق الناشز المنتبر والسائس المنتخر صورة حسية لضلال الفرقتين.

إن الخلفيات المعرفية والفكرية للإبراهيمي جعلت من ثقافته وأدبه نافذة لمن أراد تذوق سحر العربية وبيانها. في واقعية غير متسلطة وخيال غير واهم.

### خاتمة:

إن المتحدث عن الإبراهيمي والمتناول لأدبه ليجد اليسر والعسر مجتمعين، فأما اليسر فلاتساع ثقافة الشيخ وموسوعة فكره، فللباحث الفسحة في مراودة أدب الشيخ من أي جانب شاء. وأما العسر مرده عمق هذه الثقافة نفسها، فهي كالشجرة الطيبة جذعها راسخ عميق وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين. هذا الجذع وتلكم الثمار هي رؤيته وتشكيلاته، بالتعرض لخصوصية حياته في جوانبها المؤثرة على تكوين رؤيته التي تمثل الوعي الجمعي وما تفرع عنها. فالإصلاح منبعه الإسلام والعروبة وثماره الوحدة والحرية. وبهذا تكون مكونات الرؤية التي أبدعت وأنتجت، أقطار لدائرة محورها واحد تؤثر فيه، ليتحكم في النهاية بكل ما تنتجه من أشكال تعبيرية في علاقاتهما التفاعلية. وعلى هذا وجدنا نثر الإبراهيمي موضوعا وأسلوبا في تماثل واضح مع رؤيته وفكره.

### قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي.(1992).لسان العرب.بيروت، دار صادر.(ج2)
- 2- الإبراهيمي، أحمد.(1997م).آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.ط1.بيروت، دار الغرب الإسلامي(ج1، ج2، ج3، ج4، ج5).
- 3- الإبراهيمي، أحمد.من آثار محمد البشير الإبراهيمي(عيون البصائر).الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.(ج2)
- 4- الهاشمي ، سيد أحمد.جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع.(1999).ضبط وتحقيق وتوثيق يوسف الصميلي. بيروت.المكتبة العصرية.
- 5- بن عاشور، الطاهر.(1985).تحقيقات وأنظار في السنة.الجزائر.الشركة التونسية للتوزيع (م و ك).
- 6- بوحسون، حسين.(2011).أدبية الخطاب النثري عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.ط1 . الجزائر .دار الأخبار للصحافة.
- 7- بومنجل، عبد الملك.(2009).النثر الفني عند البشير الإبراهيمي.ط1.الجزائر بيت الحكمة للنشر .
- 7 - محمد الفقيه، سالم ياسين(2009)، الرؤية والتشكيل في أعمال قماشة العليان الروائية رسالة ماجستير، غير منشورة لنيل درجة الماجستير في ( الأدب والنقد)، جامعة مؤتة الأردن.
- 8 - مرتاض، عبد الملك.(1983). فنون انثر الأدبي في الجزائر.الجزائر.ديوان المطبوعات الجامعية.
- 9 - مهداوي، محمد.(1988).البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه.ط1.دمشق، دار الفكر.
- 10 -عجالي، كمال.(2005).الفكر الإصلاحي في الجزائر الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد.ط1.الوادي.شركة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع.
- 11 -فضلاء، محمد الطاهر.(1984).أعلام الجزائر، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى.ط1.قسنطينة، مكتبة البعث.
- 12 -قطب.سيد.(2004).التصوير الفني في القرآن.ط17.القاهرة. دار الشروق.
- 13 -صدار، نور الدين.(2013).البنوية التكوينية مقارنة في التطير والإنجاز.ط1.الجزائر.مكتبة الإرشاد للطباعة والنشر.



\* طالب باحث في الدكتوراه

## Résumé



### Vision et expression dans la prose de Bachir Ibrahimi

Il est un devoir inévitable de parler d'une des grandes personnalités algériennes et leurs réalisations, notamment en cette période que nous vivons au milieu d'idées hétéroclites, de numéros d'équilibrisme entre les cultures et le suivisme de cultures étrangères.

Dans cette multitude d'effusions intellectuelles diverses, nous ébauchons donc une étude qui a pour objectif de décrire la vision unique du grand penseur algérien Bachir Ibrahimi. □

Les composants de cette vision paraissent prêtes pour entrer dans le monde de l'art littéraire qui a été une conséquence de son bon sens et l'une des conséquences d'une formation aux principes de la religion, la société et sa culture et davantage qu'une réforme politique.

Cette vision reflète la perception du monde et aussi celle du sort de l'homme. L'opposition entre le bien et le mal est également mise aux devants. C'est donc la voix expressive d'un artiste consciencieux et alimenté par une philosophie de la vie digne de celle des grands écrivains.

#### Mots- clés:

la vision. Fondement . Expression. Conscience. Conséquence. Religieuse, Réforme.

